

مدونة الآثار العثمانية في العالم (المؤتمر السابع)

محمود السيد الدغيم *

رعت مؤسسة التميمي للبحث العلمي والمعلومات المؤتمر السابع لمدونة الآثار العثمانية في العالم، وعُقد المؤتمر في تونس لمدة ثلاثة أيام من شهر شباط/ فبراير لسنة 2005م، وناقش الباحثون في المؤتمر ثلاثة محاور هي: المنشآت المائية في المدن والقلاع في العهد العثماني، وضرب العملة والأسواق، ومؤسسة الحسبة ودورها في تنظيم المجال الحضري.

وقدمت أعمال المؤتمر في تسع جلسات تضمنت سبع عشرة محاضرة بالعربية والفرنسية والإنجليزية، وعُرضت خلال تداول البحوث مئات من الصور والأشكال، وتناولت العديد من الإشكاليات الحضارية والتاريخية، وتم عقد الجلسة الافتتاحية للمؤتمر يوم الخميس في 24/2/2005م، وحضرها الدكتور عبد الملك منصور، رئيس مؤسسة المنصور لحوار الحضارات والثقافات، وسفير اليمن بتونس، والوزير السابق مصطفى الفيلاي، وعدد من الشخصيات التونسية، وبمشاركة عدد بارز من الأثريين والمؤرخين الأتراك والعرب المختصين في الفن العثماني بحضور الجيل الجديد من الأثريين والآثريات التونسية من المتخصصين وطلبة الدراسات العليا.

وتضمنت الجلسة الافتتاحية كلمة المدير العام للمؤسسة عبد الجليل التميمي، وكانت الكلمة الثانية لسفير تركيا في تونس صلاح كورتورك، ومما جاء فيها: "إن المباني الأثرية العثمانية، هي في الواقع نتاج تعاون وتكامل بين مختلف الشعوب والأمم، وهي التي عاشت في نفس الفضاء الجيوسياسي، ولا بد من التذكير أنه مهما كانت مصيرية كل مبنى، فالجميع ينتمي إلى دولة واحدة واسعة هي السلطنة العثمانية على امتداد قرون عدة، وهو ما يجسد نسبة الانسجام والسلم الحضاري بين مختلف مكونات السلطنة ذات التعدد اللغوي والعرقي والوطني.

ومن هذا المنطلق، فإن الآثار العثمانية وجب ألا تكون وقفاً لشعب دون آخر، وأن المحافظة عليها وترميمها هو مسؤولية جماعية وليست مسؤولية دولة واحدة بعينها، مهما كان ثقل تلك الدولة ووزنها أو دورها في عملية الإنشاء، ذلك أن الأمر يتعلق بتراث للإنسانية جمعاء وحيث وجب الحفاظ عليه.

إن المباني التاريخية باستطاعتها أن تشجع على السياحة وإقامة العلاقات الثقافية بين الشعوب، وهذا يشكل في حد ذاته علامة بارزة على التسامح والتعايش واحترام الرأي المخالف.

ثم جاءت كلمة "بهاء تمان" باسم المشاركين في المؤتمر، ثم كلمة ممثل الأمم المتحدة بتونس فرانسيس دي بوا، وكان موضوع حديثه حول المؤسسات البحثية الخاصة في العالم، ومما قاله: "خلال اليومين القادمين، سوف تقدم الأبحاث وستتلوها مناقشات في هذه القاعة، وأن الأعمال والتحليلات سوف تسمح بتعميق معرفتنا لجانب مهم جداً من هذا التراث الإنساني، فالعرب والأترك لهم أكثر من أربعة قرون في التاريخ المشترك، وأنه من المفيد التعمق في دراسته، واستنباط الدروس لتوظيف الإمكانيات الجديدة التي وفرتها لنا الثورة التكنولوجية الجارية بهدف تعميق البحث العلمي في هذا المجال، ونأمل أن يسهم هذا المؤتمر في دعم الشراكة العلمية، وتعزيز التبادل، وتقديم أعمال البحوث الجديدة حول مدونة الآثار العثمانية في العالم.

إن الآثار هي ولا- شك مجال حيوي للتعبير عن الهوية من خلال إبراز الاعتزاز بهذا التاريخ من خلال بروز أي شعب أو فضاء ترابي أو مكاني، فالآثار قد عززت هذه الثقافة، وهذا أمر جوهري جداً، ذلك أن أي بلد بدون ثقافة هو بمثابة إنسان دون مشروع، دون إدارة فاعلة، ودون مميزات، وأن أي بلد باستطاعته أن يتأطر ويتعمق بفضل مؤرخيه ومتقفيه ومبدعيه وباحثيه، ويرجع الفضل لهم وحدهم بقدرتهم على إخراجنا من مكابد الحياة المادية ليدفعوا بنا إلى ممارسة المزيد من الحرية.

وبعد استراحة قصيرة بدأت الجلسات العلمية، فعقدت ثلاث جلسات يوم الخميس 24 شباط/ فبراير 2005م، وفي يوم الجمعة عقدت الجلسة العلمية الرابعة والخامسة والسادسة التي خصصت لحوار مفتوح حول آفاق الشراكة البحثية حول مدونة الآثار العثمانية في العالم، وفي يوم السبت عقدت الجلسة العلمية السابعة، ثم الجلسة العلمية الثامنة، والختامية التي خصصت لقراءة البيان الختامي والتوصيات.

وشارك في المؤتمر عدد من الباحثين الأكاديميين، وقد تحدث "مصطفى سروت أكبلات" من قسم التاريخ جامعة "حجي تبه" التركية، عن توزيع الماء في القلاع ومدينة "غازي عين تاب" التركية خلال العهد العثماني، وقدم نموذجاً خاصاً لمياه المباني.

وأما بحث "جيهان تركنتوز"، من جامعة "المعمار سنان" في إسطنبول، فقد تضمن بعض الملاحظات حول التربة والمدرسة، وتحدث عن أسئلة المياه في العمارة العثمانية "محمد بهاء" تمان من قسم تاريخ الفن بكلية الآداب في جامع إسطنبول.

وجاء موضوع "علبية برقوتي"، من كلية العلوم الإنسانية والاجتماعية بتونس حول قصر "باردو" في باجة، وتناول الوقف والمعمار، وتحدث "صادق بن محمد"، من كلية الآداب بالقيروان حول حظيرة بناء في قصر "حمام الأنف" في عهد محمد الصادق باي.

أما "فتحي الجراي" من المعهد العالي لمهن التراث بتونس فقد تناول موضوع التصرف في الماء والإشراف على الأسبلة خلال العهد الحسيني من خلال النقوش التقليدية ووثائق الأقباس الوقفية، وتناول "أحمد سعداوي"، من كلية الآداب بمئوية، موضوع إعادة

استعمال الهندسة المعمارية في العهد العثماني، وقدم "عبدالحكيم سلامة القفصي" من المعهد القومي للتراث بتونس، بعض الأمثلة حول المعالم المائية بالقلاع، وقدمت "المياء شقرون" من المدرسة الوطنية للهندسة المعمارية والتعمير في تونس، موضوع التحليل المورفولوجي لبعض المنارات العثمانية.

وتحدث "علي رويقي" من كلية الآداب بمثوية في موضوع عنوانه: الجامع الكبير بسليمان، وجاء موضوع "رجا العودي"، من المعهد الوطني للتراث في تونس حول توزيع الماء في مدينة تونس أثناء العهد العثماني، وتحدثت بثينة فرج، من كلية الآداب بمثوية عن الجامع الكبير في طبرية، وتحدث "عبدالحميد فنية" من كلية الآداب بمثوية عن كنز من النقود المرادية والحسينية عثر عليه بالقيروان، أما "الأزهر بدر الدين الكسراوي" من المعهد الوطني للتراث، متحف دار الجلولي في صفاقس، فقد تحدث عن المنشآت المائية بمدن الجنوب التونسي: "صفاقس" أنموذجاً، وجاء موضوع "تفاحة مفتاح" من كلية العلوم الإنسانية والاجتماعية في تونس حول أسواق "بنزرت" في العهد العثماني، وتحدثت "هناء واز" من كلية العلوم الإنسانية والاجتماعية في تونس حول المنشآت المائية في الفضاء العمراني لسوق الترك.

وهكذا قدم المؤتمر أبحاثاً تناولت المنشآت المائية وتوزيع الماء في الفضاءات المائية بالمدن والقلاع وكذلك عن طريق القنوات الأرضية بتونس واسطنبول، كما تم التوقف حول السلسبيل باسطنبول والأضرحة بإسطنبول تونس، حيث كانت الشواهد والكتابات الحسينية تؤكد تواردها وشكلت مصدراً مهماً جداً لتلك المنشآت المائية العديدة، ومن جهة أخرى تم البحث حول كنز من العملات الناصرية الذي اكتشف بالقيروان.

وتمت دراسة مؤسسة الحسبة لإدارة ناجعة وفاعلة للأسواق في العهد العثماني، والتعرض ولأول مرة لكيفية إعادة استعمال مواد البناء ذات الأصول المتوسطة المختلفة، وعلى الأخص منها المواد الرخامية الملونة، والتي تجاوزت أصنافها العشرين، عندما تمت إعادة استعمالها بفضل الخبرة الفنية المتوفرة في العديد من المنشآت الدينية والبيوتات والأضرحة والقصور والترب، وقد صاحب كل هذه المحاضرات مناقشات عالية القيمة وفي غاية من الأهمية، وهي المناقشات التي أمدتنا بقاعدة بيانات جديدة وواعدة تدعو الأثريين والمؤرخين للتفاعل معها وأخذها بالاعتبار في مشاريع بحثية أثرية مشتركة.

(* باحث أكاديمي سوري مقيم في لندن.